

قال الوراق (1) :

وظهر الأمر بعد قتل الأفضل ، بعد أن لم يكن يظهر إلا مرتين في السنة وكان الأمر سيئ السيرة . زين له بطانته أنه يملك الدنيا بأجمعها ، ورأى أن ذلك لا يكون إلا بالرجال ، والرجال لا يملكون إلا بالمال ، فنظر في صرف أموال جميع الأمراء إليه وجميع الناس فكان لا يرث بديار مصر والد ولده ، ولا ولد أباه ، وإنما يصير ما يتركه الناس من الأموال إذا ماتوا للسلطان . وأمر بأخذ أموال التجار الغريباء وسائر الناس من السوق (2) تسبب إليهم الأسباب لأخذ أموالهم ، فيؤتى إلى التاجر العطار ، فيقال له : وجد في زمن مولانا عليك كذا وكذا ! - ما يستغرق جميع ماله وأضعافه (3) - : فينكر الرجل ذلك ويقول : ما اشتريت قط بنسيئة من سلطان ولا غيره ! فلا يسمع قوله ، ويعذب حتى يقر أن جميع

(6) هو أبو الحسن علي بن حمادة الصنهاجي المتوفى سنة 628 مؤلف كتاب « النبد المحتاجة ، في أخبار صنهاجة » ، وكتاب « أخبار ملوك بني عبيد (أي الفاطميين) وسيرتهم » الذي نشره فوندرهايدن في الجزائر سنة 1927 مع ترجمة فرنسية (وإن كان الناشر قد أخطأ في اسم المؤلف إذ جعله « ابن حماد ») ؛ وهو غير أبي عبد الله محمد بن حمادوه البرنسي السبتي صاحب كتاب « المختبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس » (انظر عن علي بن حمادة كتاب « مفاخر البربر » ص 65 ؛ وليفي بروفنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديريد سنة 1954 ص 205 ، حاشية رقم 1 ؛ وكذلك ، Robert Brunschvig : Un aspect de la littérature historico-géographique del'Islam, Mélanges Gaudfroy - Demombynes, Le Caire, 1936, 1945, (p.156) .

(1) هو أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق صاحب كتاب « المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس » ، وهو من مؤرخي القرن السادس الهجري ، وكان كتابه من أهم مراجع ابن عذاري في البيان المغرب (انظر البيان 2/1 ، 228/3 ، 249 ، 258 ، 272) وابن الخطيب (الإحاطة - ط . محب الدين الخطيب 278/1 ، 288 ؛ و ط . محمد عبد الله عنان 446/1 - 447) والسلاوي (الاستقصا 166/1 ، 169) و « مفاخر البربر » (ص 37 ، 64) ، وانظر كذلك عنه ليفي بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية 259/2 ، 264 ، 272 ؛ 81/3 .

(2) في الأصل : السرقة .

(3) في الأصل : وأضعفه .

ذلك من شراء فلفل أو لاك (1) أو غير ذلك من العطر . فإذا استصفى ماله طولب بما بقي عليه فإذا لم « يوجد عنده شيء قيل له : أجل على من تعرف أنه ذو مال وكثير وتنصرف ، فيقول الرجل : فلان عنده دين ترتب لي عليه ، وهو كذا - ويذكر عدداً يستغرق مال ذلك الرجل - ، فيترك الأول ، ويؤخذ الثاني فيفعل مثل ما فعل بالأول : فكانت أيامه على هذه الوتيرة (2) !

واستخلص لنفسه فتيين من الفتيان الوضاء الوجوه الحسان الخلقة ، كان أحدهما للفاحشة ، وكان رزق كل واحد منهما في كل يوم ألف دينار (3) . اسم أحدهما حرز الملوك (4) . اسم الآخر العادل ؛ وأحدث في بلاد مصر أشياء لم يستحل (5) مثلها الفراعنة ولا النماردة ، ولا سائر الأمم الماضية .

والعباسي في هذه السنة هو المسترشد في هذه السنة قبل ؛ وأمير إفريقية الحسن بن علي بن يحيى ؛ وبمصر الأمر .

(1) كذا ، وربما كانت هذه الكلمة تحريفاً للفظ « لك » (بضم اللام وتشديد الكاف) ، وهو صيغ يستخرج من بعض الأعشاب (انظر لسان العرب تحت هذه المادة) .

(2) لخص ابن عذاري هذه الفقرة في « البيان المغرب » (287/1) ناسباً إياها إلى ابن القطان ، فقال : « وكان [الأمر بحكم الله] جباراً عنيدا ظالماً جائراً ، وكثر في زمانه دعوى الباطل ، ونصر الظالم على المظلوم وإعانتة على ظلمه » .

(3) نقل هذا النص أيضاً ابن عذاري (بيان 287/1) وأضاف إليه : « وكان يعمل النزاهة (كذا ، ولعلها التزه) ويبيح للناس فيها المحظورات ، فلا يشاء مؤمن أن يعان منكرأ مباحاً إلا عاينه » .

(4) في الأصل : هدار ملك ، وسيأتي الاسم فيما بعد في هذا الكتاب هكذا « حرز الملوك » ، وهو ما أثبتناه هنا ، وإنما يعني هذين المملوكين اللذين أشار إليهما المقرئ في الخطط (172/2) وابن تغري بردي (النجوم 240/5) واسم أولهما عند المقرئ « هزار الملوك برغوارد » وعند ابن تغري بردي « هزير الملوك جوامرد » ، وأما الثاني فهو برغش الملقب بالعادل . هذا ويبدو من هذا النص تحامل ابن القطان على الفاطميين ومبالغته في التشهير بهم ، إذ لا يشير المقرئ ولا ابن تغري بردي إلى ما يزعم مؤلفنا هنا أنه كان الغرض من استخدامهما ، فكلا المؤرخين يقول إنهما كانا من خدام الأمر ، وإليهما يرجع الفضل في تولية الخليفة الحافظ بعده .

(5) في الأصل : يستحر ، ولعلها كما أثبتنا ، وقد تكون أيضاً « يستجز » .

ومات⁽¹⁾ في هذه السنة العزيز بالله صاحب بجاية . وولى ابنه يحيى وكان لبني الناصر [بن علاء الناس بن حماد ببجاية والقلعة وتلك البلاد]⁽²⁾ وزراء يعرفون ببني حمدون [توارثوا وزارتهم . منهم ميمون بن حمدون⁽²⁾] عند يحيى هذا ، فنشأ ليحيى ولد ، فولاه الأمر بعده ، وفوض الأمر إليه في حياته ، فجعل الولد يستنقص [الوزير]⁽²⁾ ميمونا ويقبح أفعاله ويسميه « الشيخ الكذاب » ، فخاف منه ميمون على نفسه ، فجعل يخاطب الإمام * أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن ابن علي رضي الله تعالى عنه .

باب أخبار سنة تسع عشرة وخمسمائة :

في أخبار الموحدين :

فمن ذلك ظهور أبي محمد البشير :

قال اليسع :

لما كان عام تسعة عشر وخمسمائة خرج الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه إلى الناس ، فقال له : تعلمون هذا الشيخ البشير ؟ فقالوا له : ومن البشير ؟ قال لهم : هو الونشريشي . تعلمون⁽³⁾ أنه أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ، وتعرفون أنه لا يثبت على آية ، وقد جعله الله مبشراً لكم مطلعاً على أسراركم ، وهو من آية الله تعالى في هذا الأمر !

فأول كراماته أنه حفظه الله القرآن ، وعلمه الركوب ، ثم استعرضه أمامهم فحفظ ، فعرضه عليهم في أربعة أيام : في كل يوم ربع ، وأجرى أمامهم حصانا أتقن ركوبه غاية الإتقان ، فاستغربوا أمره وأعجبهم وصدقوا ذلك تصديقا قويا⁽⁴⁾ .

(1) نقل هذا النص حتى آخر الفقرة ابن عذارى في البيان المغرب (309/1 - 310) دون أن ينسبه إلى ابن القطان .

(2) إضافات يقتضيها السياق ، من البيان المغرب (الموضع المذكور في الحاشية السابقة) .

(3) في الأصل : يعلمون .

(4) أورد هذه القصة مع كثير من التفاصيل التي هي أشبه بحوك الاساطير منها بسرد التاريخ : ابن الأثير في الكامل (297/8) والنويري في نهاية الأرب . (ط . جاسبار رميرو سنة 1919) ص 192 - 192 ؛ =

ثم قام الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه خطيباً فيهم ، فقال لهم : « قال الله تعالى : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾⁽¹⁾ ، وقال سبحانه [49] وتعالى : ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم ﴾ الفاسقون⁽²⁾ » ؛ وهذا البشير مطلع على الأنفس محدث ، والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول « إن في أمتي محدثين ، وإن عمر منهم⁽³⁾ » ؛ وقد صحبنا أقوام أطلعهم الله تعالى على ما في نفوسهم من النفاق ، ولابد من النظر في أمورهم حتى يتم المراد من العدل في أحكام هذه البلاد .

فقالوا له :

- ما أهرت يمثل !

فنودى في الناس في جبل المصامدة المطيعين : من كان مطيعاً لله تعالى ولرسوله ﷺ ولالإمام المهدي رضي الله تعالى عنه⁽⁴⁾ فليقبل !

فكانوا يأتون قبائل قبائل⁽⁵⁾ ، فيعرضون على البشير ، فيخرج قوماً عن يمينه وقوماً⁽⁶⁾ عن يساره ، فكل من أخرجه عن يمينه يزعم أنه من أهل الجنة ، وما خرج عن يساره ، إلا شاك⁽⁷⁾ في الأمر وفي الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه .

= وانظر كذلك أويثي : الخرافة والتاريخ فيما كتب عن نشأة الدولة الموحدية (وهو الملحق الأول من ملاحق كتابه « تاريخ الدولة الموحدية ») (595/2 - 596 .

(1) سورة الأنفال ، آية رقم 37 .

(2) سورة آل عمران ، آية رقم 110 .

(3) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم في باب فضائل عمر (رضه) (115/8) على هذه الصورة : « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم » ؛ وفسر ابن وهب لفظ « المحدث » هنا بأنه الملهم ، وقال القسطلاني إن المحدث هو الذي يلقي في روعه الشيء قبل الإعلام به أو يجري الصواب على لسانه من غير قصد .

(4) زيادة يقتضيها السياق .

(5) في الأصل : قبائلاً قبائلاً .

(6) في الأصل : قوم وقوم .

(7) في الأصل : شاكا .

واتفقت له فيهم عجائب : منها أنه يؤتى برجل ، فيقول : ردوا هذا على اليمين ، فإنه تائب ، وقد كان قبل كافراً بهذا الأمر ، ثم أحدث البارحة أو اليوم توبة ! فيقول الرجل : كل ما حدث به الإمام فهو حق ! ويطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أنه ليس لهم إلا القتل ، فلا يفر منهم أحد . وكان إذا اجتمع منه كثير قتلهم * قرابتهم : يقتل الأب ابنه والابن أباه والأخ أخاه ⁽¹⁾ .

أخبار سنة (522)

[33 ب] * وفيها استرعي علي بن يوسف البيعة لابنه سير ⁽²⁾ ، فعقدت له البيعة بقرطبة .

(1) عن هذا « التمييز » أو التطهير الذي اضطلع به البشير انظر ابن الأثير والتويري (في الموضوعين اللذين سلفت الإشارة إليهما من قبل) ؛ والبيدق : أخبار المهدي ص 78 ؛ وابن خلدون : العبر 228/6 ؛ والسلاوي : الاستقصا 86/2 - 87 .

(2) سير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، من أبناء السلطان المرابطي علي بن يوسف ، وقد عقد له أبوه ولاية العهد في يوم الجمعة 14 جمادى الأولى سنة 522 (15 يونيو 1128) كما نص على ذلك ابن عذارى في البيان المغرب (القسم المرابطي ص 78 - 79 وعبد الملك بن موسى الوراق في كتاب المقباس حسبما نقل عنه ابن الخطيب في الإحاطة (ط . عنان) 446/1 - 447 ، وعهد علي بن يوسف في نفس الوقت إلى ابنه تاشفين بحكم الأندلس ، فكير ذلك على سير وفاوض أباه في عزله لما اشتعل في نفسه من حسد لأخيه تاشفين بسبب ثناء الناس عليه ، فلم يسع أباه إلا أن عزل تاشفين عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته ، فرحل هذا إلى مراكش في أواسط سنة 531 ، وصار في جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابيه . وقد بقي سير ولياً للعهد منذ سنة 522 حتى وفاته سنة 533 على الصورة القبيحة » كما يقول ابن الخطيب ، وهي الصورة التي سوف يصفها ابن القطان عند الحديث عن موته في أخبار سنة 533 ، ويتفق مع هذا ما يذكره فرانسيسكو كوديرا في بحثه عن « بني تاشفين » في كتاب « أبحاث نقدية حول التاريخ الأندلسي » (المجلد التاسع - سرقسطة سنة 1899) ص 119 - 120 حيث يصف مجموعة من النقود المرابطية ضربت في مراكش والمرية وإشبيلية منصوباً فيها على « سير ولي العهد » . (وانظر عن سير بن علي مقالنا « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ص 132 - 133 والمراجع المذكورة في هذا الموضوع) .

وفيها عزل علي ولده أبا بكر ⁽¹⁾ عن إشبيلية ⁽²⁾ ، وغربه مكبولا إلى الصحراء لأمر نسب إليه ، لأنه لم يرض بيعته أخيه ، وولى مكانه بإشبيلية أجداي ⁽³⁾ ،

(1) أبو بكر بن علي بن يوسف ، هو أكبر أبناء السلطان المرابطي ، ولد سنة 493 (1099 - 1100) ، وكان بلقب بيكور (صيغة تصغير « أبي بكر ») وكذلك بكو ، ونشأ بالأندلس كما جرت عادة علي بن يوسف في تنشئة أبنائه ، فدرج في إشبيلية وقام على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان ابن زهر ، ولكنه لم يكن منصرفاً إلى التحصيل بل كان كثير التشغيب والتضريب كما نستدل من رسالة من أبيه إليه (نشر هذه الرسالة الدكتور حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، سنة 1954 ص 68 - 70) ، ويبدو أن أول منصب رسمي عهد به إليه كان حكم إشبيلية في ذي الحجة سنة 517 (يناير - فبراير 1124) ، وإن كان لم يضطلع به بالفعل إلا في شهر المحرم سنة 518 (فبراير - مارس 1124) ؛ وكان مما قام به أثناء حكمته لإشبيلية تعقبه لألفونسو المحارب حينما قاد حملته الطويلة التي اخترق فيها بلاد الأندلس في سنة 519 (1125 - 1126) ، وقد أسند إليه أبوه بعد ذلك قيادة جيوش الأندلس في 27 صفر سنة 520 (24 مارس 1126) ؛ ويذكر ابن الأبار من غزواته حملته إلى كويليه في جمادى الآخرة سنة 522 (التكملة - ط . كوديرا ص 87 ، الترجمة رقم 289) ، أما عزله عن إشبيلية الذي يشير إليه ابن القطان في هذا النص فإنه كان في رجب سنة 522 (يولييه 1128) بسبب تصريحه بالتذمر والضيق من تعيين أخيه سير ولياً للعهد ، ولعله كان يرى نفسه أحق بذلك لأنه أكبر إخوته . فنفي إلى الصحراء (صحراء المغرب) كما يذكر ابن القطان ، ويبدو أن أباه رضى بعد ذلك عنه إذ نرى أنه قد عهد إليه بقيادة بعض جيوش المرابطين في قتال الموحدين ، وفي سنة 533 يتوفى سير بن علي ولي العهد فيعهد علي بن يوسف بالأمر إلى تاشفين ، ويعود أبو بكر إلى الاحتجاج والسخط . حتى إذا ضاق به أبوه أمر بإخراجه من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها ، ويقول ابن عذارى إنه وصل إلى الجزيرة مريضاً فلم تطل مدة محبسه هذا إلى أن هلك (انظر مقالنا « وثائق تاريخية جديدة » ص 130 - 139 ؛ وأويشي : علي بن يوسف وأعماله بالأندلس ص 102 ، 108 ، وانظر كذلك ابن عذارى : البيان المغرب (القسم الموحدى - ط . بيروت ص 30) .

(2) كذا ، ويكتب هذا الاسم عادة « إشبيلية » ، على أن كتابة هذا الاسم بغير ياء - كما جاء في الأصل - كان شائعاً في عامية الأندلس كما ينص على ذلك ابن هشام اللخمي في « لحن العامة » : « ويقولون ببعض بلاد الأندلس إشبيلية ، والصواب إشبيلية ، وكذلك عربتها العرب ، وكان اسمها قبل ذلك أشبانية » (انظر هذا النص و تعليق الدكتور عبد العزيز الأهواني عليه في مقاله « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة » - مجلة معهد المخطوطات العربية - مايو سنة 1957 - ص 143) .

(3) لسنا نعرف على وجه التحقيق من هو « أجداي » هذا ، وقد ذكر أويشي في مقاله عن « علي بن يوسف ... » أنه هو المسمى بعبد الله بن أبي بكر سير اللمتوني (ص 102 - 103 ، 112) ، ثم ذكر

فنهض من قرطبة إلى إشبيلية ، واستخلف على قرطبة أبا زيد تيكلمت⁽¹⁾

وفيهما ولي [قضاء] قرطبة [أبو] عبد الله محمد * بن أصبغ⁽²⁾ ؛ وقدم أبو الوليد بن رشد⁽³⁾ إلى مراکش على علي بن يوسف ، وأشار عليه ببناء سور

[34 أ]

= مرة أخرى في نفس المقال أنه عبد الله بن عمر بن سير اللمتوني (ص 107 - 108 ، 111) ؛ هذا والذي نعرفه من القائمة التي أوردها ابن عذارى لولاة إشبيلية في « البيان المغرب » (القسم المرابطي) (ص 106) أن الذي خلف أبا بكر بن علي بن يوسف على حكم إشبيلية هو عمر بن سير وظل عليها ما بين شعبان وذي القعدة سنة 522 (أغسطس - ديسمبر 1128) . انظر مقال أويثي السالف الذكر ص 108 ؛ ويرى هذا الباحث أن حكم أجداي للمدينة ربما كان بصفة مؤقتة قبل ولاية عمر بن سير المذكور .

(1) ذكر أويثي في مقاله المشار إليه (ص 111) أن أبا زيد هذا قتل في سنة 524 (1129 - 1130) في خلال معركة مع النصارى على الأرجح ، وأن حكمه لقرطبة كان لفترة قصيرة على أية حال ، إذ أن ابن القطان هو المؤرخ الوحيد الذي يشير إلى ولايته .

(2) في الأصل : « وفيها ولي قرطبة عبد الله بن محمد بن أصبغ » ، والنص على هذه الصورة يوقع في الخطأ مما حملنا على إصلاحه على ما أثبتنا ، فالذي نعرفه من سائر المراجع التاريخية أنه لم يل ولاية قرطبة أحد يحمل هذا الاسم في السنة المذكورة ، وإنما نعرف أن من بين من ولوا قضاء الجماعة بقرطبة أبا عبد الله محمد بن أصبغ الأزدي القرطبي المعروف باسم ابن المناصف ، ولد سنة 474 ، وولى خطة المظالم بقرطبة مع شيخه أبي الوليد ابن رشد ، وكان هذا يستحضره في مشايخ أهل الشورى ، ثم ولي قضاء الجماعة مدة طويلة ، وصرف بعد ذلك عنه ، ففرغ إلى التدريس وولى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى سنة 536 وقد جاوز الستين (انظر في ترجمة : الضبي : بغية الملتبس ترجمة 51 ؛ ابن الأبار : معجم أصحاب أبي علي الصديقي ، ترجمة 118 ؛ ابن سعيد : المغرب 163/1 ؛ ابن بشكوال : الصلة رقم 1288) .

هذا ويدلنا على صواب ما رجحنا أن ابن القطان نفسه سيذكر في أخبار سنة 528 أن فيها عزل علي ابن يوسف « أبا عبد الله بن أصبغ » عن القضاء بقرطبة ؛ وقد انخدع بنص ابن القطان الأستاذ أويثي فعده من ولاة قرطبة في هذه السنة (انظر مقاله عن علي بن يوسف ... ص 111) .

(3) هو الفقيه المشهور أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ولد بقرطبة في سنة 450 ، وولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة 511 وبقي في هذا المنصب حتى سنة 513 أو 515 إذ استغنى عن القضاء لكي يتفرغ لتأليف كتابه الكبير « البيان والتحصيل » . وكانت وفاته في الحادي عشر من ذي القعدة سنة 520 . (انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة 1270 ؛ الضبي : بغية الملتبس ، ترجمة 24 ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص 278 - 279 ؛ النباهي : المرقبة العليا ص 98 - 99 ؛ وانظر كذلك بروكلمان : تاريخ الأدب العربي 384/1 . والذيل 662/1 .

مراكش ، وقال له : لا يحل لك سكنى هذه المدينة دون سور ، فبناه وأنفق في بنائه نحو سبعين ألف دينار⁽¹⁾ .

وفيهما مات ابن الوراق السرقسطي⁽²⁾ ، وابن يربوع المحدث⁽³⁾ ، وأبو بكر ابن ناصر⁽⁴⁾ .

والعباسي في هذه السنة المسترشد كما كان ، وبإفريقية حسن بن علي ، وبمصر الأمر .

* * *

(1) من الواضح أن ابن القطان قد وهم هنا إذ جعل رحلة ابن رشد إلى مراکش في سنة 522 بينما نعرف أنه توفي قبل ذلك بستين ، ويبدو أن ابن القطان قد اعتمد في هذا التاريخ على أبي مروان الوراق في كتاب « المقباس » إذ أن هذا المؤرخ هو الذي أوحى في كلامه عن بناء سور مراکش بأن رحلة ابن رشد كانت في سنة 522 ولو أنه لا ينص على ذلك صراحة (انظر ما نقله عن الوراق في ذلك صاحب كتاب « مفاخر البربر » ص 53) ، وقد تابع ابن القطان على ذلك ابن عذارى في « البيان المغرب » (310/1) ولو أنه لا ينص على نقله عنه والصحيح أن رحلة ابن رشد إلى مراکش ونصحه لعلي بن يوسف ببناء سورها إنما كانا في أواخر سنة 519 على أثر الغزوة التي قام بها ابن رزمير (ألفونسو المخارب ملك أرغن) واخترق فيها الأندلس من شمالها إلى جنوبها . وقد نص على هذا التاريخ صاحب اللؤلؤ الموشية (ص 97) ، وقد كانت وفاة ابن رشد بعد رجوعه إلى قرطبة من تلك الرحلة بنحو خمسة شهور (انظر ترجمة أويثي الإسبانية لنص « اللؤلؤ » ص 116 ، وكذلك مقالنا « وثائق تاريخية جديدة ... » ص 124 - 126) .

(2) في الأصل : « ابن الوراق والسرقسطي » مما يوحي بأنهما شخصيتان مختلفتان والواقع أن الإشارة هنا إلى أبي المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن هارون الفهمي السرقسطي المعروف بابن الوراق ، أقرأ الناس بالمسجد الجامع بقرطبة وتولى الصلاة فيه ، وكانت وفاته في الخامس من صفر سنة 522 ، وكان مولده في سنة 442 (انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة 750) .

(3) هو المحدث المشهور أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يربوع ، أصله من شنترين ، ويعتبر في عداد أهل إشبيلية ، وسكن قرطبة ، وكان بصيراً بالحديث والرجال والتعديل والتجريح ، وتولى في التاسع من صفر سنة 522 ، وولد في سنة 444 (انظر ترجمته في الصلة ، رقم 644 ، وابن الأبار : معجم أصحاب أبي علي الصديقي ، رقم 191) .

(4) لم يهتد إلى شخصية ابن ناصر هذا .

باب

أخبار سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

كان الموحدون أعزهم الله تعالى بتينملل .

وفي هذه السنة وصل إلى علي بن يوسف خبر من مدينة بلنسية أن ابن رزمير⁽¹⁾ عازم على الخروج إلى بلاد المسلمين ، فخشي أن تكون حركته كالتى كانت في سنة عشرين⁽²⁾ ، فقسط على الرعية سودانا يغزون في العساكر ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم ، يخرجون ذلك من أموالهم ، ففعلوا .

ونهبست الحشود إلى مرسية ، وقائدها بدر بن ورقاء⁽³⁾ ، وقائد العساكر

(1) يعنى به ألفونسو الأول ملك أرغون المعروف بالمحارب Alfonso el Batallador ، حكم أرغون ونبرة ما بين سنتي 499 و 529 هـ . (1104 - 1134) وهو الذي استولى على سرقسطة سنة 512 (1118) من أيدي المسلمين واتخذها عاصمة للملكه ، وكان قد قام في سنة 519 - 520 بحملة جريئة على بلاد المسلمين من سرقسطة حتى وصل إلى السواحل الجنوبية الشرقية دون أن يتعرض لمقاومة تذكر .
(2) يعنى الحملة التى أشرنا إليها في الحاشية السابقة ، وقد فصل الحديث عنها صاحب الحلال الموشية ص 91 - 97 (والترجمة الإسبانية ص 109 - 110) وابن الخطيب : الإحاطة (ط . محب الدين الخطيب) 20/1 - 24 ، والإحاطة (ط . عنان) 108/1 - 114 ؛ وانظر كذلك : Dozy: Recherches..., 1, pp. 348 ؛ وكوديرا : اضمحلال دولة المرابطين ص 13 - 16 ؛ وبوسك بيلا : المرابطون ص 233 - 236 ؛ ويوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ص 146 - 150 ؛ ومقالنا « وثائق تاريخية جديدة » ص 123 - 126 .

(3) في الأصل : بدر بن ورقاء ، والصواب ما أثبتنا ، وهو القائد أبو عبد الله بدر بن ورقاء ، كان واليا على بلنسية في سنة 519 (1125) حينما مرت بالقرب منها جيوش ابن رزمير (ألفونسو المحارب) خلال حملته على الأندلس ، ويبدو أن عمل مرسية أضيف إليه بعد ذلك ، ويذكر ابن عذارى (الذي يسميه محمد بن يوسف بدر) أنه توفي سنة 524 وهو على عمل بلنسية (انظر مقال أويشي عن « علي بن يوسف ... » ص 113 - 114) ، وقد نص صاحب « مفاخر البربر » عليه في القائمتين اللتين أوردتهما لعمال بلنسية ومرسية للمرابططين (ص 82) ، ومن بين « النصوص السياسية » التي نشرها الدكتور حسين مؤنس عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد =

كلها ابن مجوز⁽¹⁾ ، وابن رزمير بالقليعة⁽²⁾ بمقربة من جزيرة شقر ، فالتقى

= سنة 1955 - ص 120 - 122) رسالة موجهة من ابن ورقاء هذا إلى القاضي ابن عبد العزيز بلنسية يعلمه فيها باستخلاص حصن كوالية من أعمال بلنسية من أيدي النصارى ، وتاريخ الرسالة 14 من جمادى الآخرة سنة 522 ، وهذه الغزوة هي التي اشترك فيها - باعتباره قائدا عاما للجيوش المرابطية أبو بكر بن علي بن يوسف كما يفهم من نص لابن الأبار (التكملة ط . كوديرا - ص 87 ، ترجمة 289) ؛ ولعل هذه الحملة هي نفسها التي يتحدث ابن القطان عنها في هذا الموضع ، وانظر كذلك أويشي : تاريخ الدولة الموحدية 77/1 .

(1) يرى أويشي أن ابن مجوز هذا هو الذي تسميه بعض المراجع الأخرى أبا زكريا يحيى بن علي بن الحاج وأن اسم « مجوز » و « مكور » و « مقوز » ليست إلا صيغا بربرية لكلمة « حاج » العربية ، وهو من عائلة بني الحاج المشهورة التي أنجبت عددا من أعظم القواد المرابطين ، وأول أفراد هذه الأسرة أبو عبد الله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت الذي كان ابن عم يوسف بن تاشفين وواحدا من خيرة قواده وهو الذي هزم ألفونسو السادس ملك قشتالة في معركة كنشرة Consuegra سنة 490 انظر حول هذه الواقعة تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مدريد 1971 ص 108 ؛ وأخوه أبو الحسن علي بن الحاج هو الذي عهد إليه بحكم غرناطة سنة 496 ، وفي سنة 497 يستشهد في ميدان القتال ضد النصارى قرب بلنسية ، ويخلفه في هذه السنة أخوه محمد على حكم غرناطة ، وفي سنة 498 يعزل عن غرناطة ويظل بعيدا عن مناصب الحكم حتى يعتلي علي بن يوسف العرش ، فيعهد إليه بولاية فاس سنة 501 ، ثم بلنسية سنة 503 ، ثم يشترك في القتال الدائر بين المرابطين وألفونسو المحارب قرب سرقسطه ، ويستشهد هناك في سنة 503 ابنه يحيى وعن هذه الواقعة يتحدث ابن الأبار عرضا في ترجمة عبد الرحمن بن محمد بن حيوة الأنصارى ، إذ قال إنه توفي شهيدا بسرقسطه في « الكائنة على أوى عبد الله ابن الحاج الممتونى بها سنة 503 » وتسمى سنة المرج . (انظر التكملة لابن الأبار ، ط . كوديرا ، الترجمة 1572 ص 554) ، وفي سنة 508 يشترك في معركة البورت Congost de Martorell التى هزم فيها المسلمون ، ويتوفى في السنة التالية في معركة ضد القشتاليين .

أما أبو زكريا يحيى بن علي بن الحاج المذكور في هذا الموضع من النص فقد أسند إليه حكم إشبيلية سنة 523 ، وفي هذه السنة يشترك في الواقعة التي انتهت بهزيمة قلييرة Cullera التي يتحدث ابن القطان عنها هنا ، وقد كان من نتائج هذه الهزيمة أن عزل عن حكم إشبيلية ، وخلفه على ولايتها أخوه عمر في سنة 524 ، ولكنه لم يلبث أن استشهد أيضا في سنة 526 في الواقعة التى هزم فيها المسلمون أمام جيوش ألفونسو السابع ملك قشتالة . وقد أشار إلى هذه الواقعة ابن عبد الملك المراكشي في ترجمة سليمان بن جعفر الحضرمي الإشبيلي (الذيل والتكملة ، المجلد الرابع ، الترجمة 147 ص 61) إذ قال إن سليمان بن جعفر المذكور هو الذى خاطب على بن يوسف بن تاشفين عن أهل إشبيلية يعلن باستشهاد أميرها عمر بن مقور بقتل الروم إياه في رجب سنة 526 . (انظر أويشي : علي بن يوسف ص 106 - 107) .

(2) هذه الواقعة هي المعروفة باسم « قلييرة » Cullera ، وهى قرية تقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة بضعة كيلو مترات إلى شرق جزيرة شقر Aicira .

الجمعان هنالك ، وانهم المسلمون ، وتبعهم العدو ، وذهب أكثر الرجال قتلا وأسرا ، وحاز [العدو] ⁽¹⁾ الأسلاب والأثاث والدواب ، وذهب من المسلمين ما [34 ب] يزيد « على اثني عشر ألفا بين قتيل وأسير ؛ وبلغ ذلك علي بن يوسف ، فغاضه ⁽²⁾ ، وأمر بالكتب إلى لمتونة ⁽³⁾ بالخزى ، فكتب ابنا أبي الخصال ⁽⁴⁾ عنه إليهم بكل تنكيل وخزى ؛ وكل هذا مما مهد الله تعالى به أمر الموحدين أعزهم الله تعالى .

وأغارت ⁽⁵⁾ النصارى على غَلِيْرَة ⁽⁶⁾ ، واكتسحت ما وجدت ، ورصد النصارى أجداي ⁽⁷⁾ صاحب قرطبة في بعض مخارجه ، فالتقوا به ، فنكب المسلمون وأصيب منهم جملة ، وعزل أجداي عن إشبيلية ، ووليها يحيى بن بكون ⁽⁸⁾ ؛ وعزل تميم ⁽⁹⁾

(1) زيادة يقتضيها السياق .

(2) في الأصل : فغاضه .

(3) في الأصل : لمتون .

(4) في الأصل : أبناء أبي الخصال ، وإنما المقصودان هما أبو عبد الله محمد وأبو مروان عبد الملك ابنا مسعود الغافقيان الشقوربان وكانا من أعظم كتاب الدولة المرابطية حتى وقع منهما أو من أحدهما ما أوجب غضب علي بن يوسف عليهما وإقصاءهما بسبب تلك الرسالة التي يشير إليها ابن القطان هنا ، وتوفي أبو مروان بمراكش سنة 539 ، وأما أبو عبد الله فكانت وفاته بقرطبة في السنة التالية (انظر مقالنا « ورائق تاريخية ... » ص 118 - 119) . هذا وقد نشر الدكتور حسين مؤنس نص الرسالة التي كتبها أحد هذين الأخوين على لسان علي بن يوسف إلى جند بلنسية من المرابطين حينما أوقع بهم ابن رزمير تلك الهزيمة ، وفيها يعبرهم بتخاذلهم وتقاعدهم ، وقد أفحش الكاتب الأندلسي في رسالته هذه على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة على ما يقول عبد الواحد المراكشي في « المعجب » (ص 240 - 241) ؛ انظر « نصوص سياسية ... » ص 114 - 118 .

(5) في الأصل : وغارت .

(6) بالإسبانية Galera . انظر أويثي : تاريخ .. 77/1 .

(7) في الأصل : أجد .

(8) كذا ، ولعلها مكوز (مجوز) ، ويرى أويثي أنه أبو زكريا يحيى بن علي بن الحاج ، وأنه هو المذكور باسم « ابن مجوز » (انظر ما سبق أن أوردناه في الحاشية رقم 1 ص 153) .

(9) هو تميم بن علي بن يوسف بن تاشفين ، ذكره ابن عذارى في حديثه عن أبناء الأمير علي بن يوسف ، وقال إنه حضر مبايعة أخيه سير بولاية العهد في قرطبة في 14 جمادى الآخرة سنة 522 ، =

عن فاس ⁽¹⁾ ووليها عمر بن علي بن يوسف ⁽²⁾ .

وضرب السليطين ⁽³⁾ بالنصارى على جريدة ⁽⁴⁾ من الخيل تحمل الميرة إلى بعض الثغور ، فرموا الأطعمة وفروا أمامه .

وبعث علي بن يوسف ألفي دينار لإصلاح سور ⁽⁵⁾ سبتة .

وكان العباسي في هذه السنة المسترشد على ما كان عليه قبل . وكان بمصر أيضا في هذه السنة [الأمر] ⁽⁶⁾ ، وفي المهديّة وبجاية الولاة الذين كانوا عليها في السنين التي قبلها حسبا تكرر ذكره .

* * *

= ولنا نعرف عنه بعد ذلك إلا ما يذكره ابن القطان هنا من ولايته على فاس ثم عزله عنها ، ثم اشتراكه في قتال الموحدين (انظر أويثي : علي بن يوسف ... ص 105) .

(1) في الأصل : قابس ، والصواب ما أثبتنا .

(2) لا نعرف الكثير عن أبي حفص عمر بن علي بن يوسف المذكور هنا ، وقد ذكر ابن عذارى أنه ولي حكم غرناطة خلفا لابن عمه أبي عمر يناله ، وكان أول ما قام به هو إطلاق سراح فقهاء جيان الدين قبض عليهم سلفه عامل غرناطة ، وكان من أهم ما قام به أثناء عمله هو الاشتراك مع أخيه الأكبر أبي بكر بن علي بن يوسف في مهاجمة النصارى الذين كانوا قد استولوا على أحد حصون المسلمين ، فاستنقذ الأميران الحصن واستعرضا معا جنودهما في غرناطة ، ولكن حكمه لهذه المدينة لم يستمر إلا أربعة أشهر (من جمادى الأولى حتى رمضان سنة 522) وبعدها عزل عن غرناطة وانتقل إلى المغرب فيما يبدو (انظر البيان المغرب - القسم المرابطي - ص 75 - 77 ، 97 ، 99) ونعرف من نص ابن القطان هنا أنه عهد إليه بحكم فاس في سنة 523 ؛ كذلك نعرف من نص آخر في آخر هذا الكتاب أنه هو الذي ألحق بأخيه سير ولي العهد جراحة خطيرة إثر تسوره على داره يريد زوجته ، وذلك في آخر صفر سنة 533 ، فتوفي سير من أثر هذه الجروح .

(3) في الأصل : السلطين ، وإنما المراد بالسليطين (تصغير السلطان) هو ألفونسو السابع الذي ولي عرش قشتالة في سنة 1126 بعد وفاة أمه « أراكا » Urraca بنت ألفونسو السادس وظل يحكم حتى سنة 1137 (520 - 534 هـ) ، وكان قد نصب على عرش بلاده وهو بعد صغير السن ، وربما كان هذا هو السبب في استخدام ابن القطان عند الإشارة إليه لفظ « السليطين » بالتصغير .

(4) في الأصل : حليلة .

(5) في الأصل : رسول .

(6) إضافة يقتضيها السياق .

* باب *

في أخبار سنة أربع وعشرين وخمسمائة
أخبار الموحدين أعزهم الله تعالى:
فيها التمييز والحركة المباركة

كان للموحدين أعزهم الله تعالى تمييز بهونا ، وقتل فيه المنافقون ، وتمييز
بتينملل ، كانت عقبه الحركة إلى البحيرة ⁽¹⁾ ، وكان الإمام رضي الله تعالى عنه قد
حشد لها الناس ، وكتب رضي الله تعالى عنه [عنه] باستدعائهم وتحريضهم ،
فشيّعهم الإمام رضي الله تعالى عنه إلى تينملل كرمها الله تعالى .
وتماذي الموحدون أعزهم الله تعالى في مسيرهم ، فخرج إليهم تميم بن علي
ابن يوسف بعسكر لجب مع بعض أصحابه إلى إيجيليز ⁽²⁾ .

* هزيمة أبي بكر بن يندوج ⁽³⁾ بكيك :

واستوفت على تميم ⁽⁴⁾ الأموال والسلاح بكيك ، فطلب منه الجند قسمة
شيء من ذلك عليهم ، فوعدهم للغد ، فلما كان اليوم الثاني وقعت عليهم الهزيمة ،

(1) في الأصل : البحيرية .

(2) في الأصل : الجليلين .

(3) ربما كان أبو بكر بن يندوج هذا هو الذي يذكره ابن خلدون باسم أبي بكر بن محمد اللمتوني
عامل السوس (العبر 228/6) ولعله هو نفسه الذي يذكره البيهقي (أخبار المهدي ص 129) مسميا إياه
عمر بن يندوك ، وكان معتصما بحصن تافر ككونت في كيك غيغرة ، غزاه البشير ، ومات عمر هذا
فأخذ الموحدون له 150 فرسا ، ومات فيه 500 رجل .(4) هو تميم بن علي بن يوسف المذكور قبل ذلك ، وقد أورد صاحب الحلل الموشية وصفا لهذه
الوقعة ، إلا أنه ظن أن تميما هذا هو تميم بن يوسف بن تاشفين أخو الأمير علي بن يوسف (انظر الحلل
ص 84 و ص 134 من ترجمة أويش الإسبانية) . وقد نص ابن عذارى على تميم هذا عند حديثه عن أبناء علي
ابن يوسف (البيان المغرب - القسم الموحد - ط . بيروت ص 30) .

فأسلموا الأموال والسلاح والأخبية وغيرها ، وحاز الموحدون أعزهم الله تعالى ذلك
كله ، وانهزم أبو بكر بن يندوج ⁽¹⁾ .

هزيمة بكو بن علي وقتل يطى بن إسماعيل :

ولما انتهت الهزيمة ⁽²⁾ إلى الجروية ⁽³⁾ خرج عليهم * بكو بن علي بن يوسف ⁽⁴⁾
ومعه يطى بن إسماعيل ⁽⁵⁾ والقواد في عسكر مجر ⁽⁶⁾ ، فأخذت البشير ⁽⁷⁾ تلك السنة
التي كانت تأخذه عند عظام الأمور ، فلما قام من سنته أعلمهم بالفتح وأنهم يهزمون
بكو بن علي ، وأنهم لابد لهم من يوم آخر ينزلون فيه « أفراج ابن وغواد » على مقربة من
مراكش ، وأنه يجرح ⁽⁸⁾ سبعة من الموحدين - وأشار إلى أحدهم - ، فانهزم بكو ومن
معه دون مشقة ولا كبير حرب ، وأخذت محلاتهم ⁽⁹⁾ ودوابهم وأمتعتهم وأسبابهم
وأسلحتهم ⁽¹⁰⁾ وقبائهم . وجدوا في آثارهم . وكان ذلك كله !

(1) في الأصل : يندوج .

(2) العزيمة .

(3) لم أستطع التحقق من هذا الموضع .

(4) نظن أن اسم [بكو] هذا ليس إلا صيغة من الصيغ التي يكتب بها اسم [أبي بكر] مثل بكور
أيضا ، ولهذا فالمقصود هنا هو أبو بكر بن علي بن يوسف أكبر أبناء السلطان المرابطي الذي سبق أن ترجمنا
له (انظر ص 149 حاشية رقم 1) وقد جاء الاسم على نفس الصورة التي يوردها ابن القطان هنا فيما
كتبه عن هذه الوقعة البيهقي (أخبار المهدي ص 131 ، والترجمة الفرنسية ص 222) ؛ أما ابن أبي زرع في
روض القراطس (157 ، 179) والسلاوي في الاستقصا (92/2) فيسميانه [أبا بكر] . وانظر أويش :
تاريخ 80/1 .(5) يسمى صاحب الحلل الموشية هذا القائد المرابطي [بطى اللمتوني] (انظر ص 112 من النص
و 135 من الترجمة الإسبانية) .

(6) في الأصل : مجر .

(7) هو أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريشي الذي سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(8) في الأصل : يخرج .

(9) في الأصل : محلاتهم .

(10) في الأصل : وانسيابهم وأسلحتهم .

فوصلوا يوم الاثنين إلى أمجدار بقبلة أغمات وريكة . فوجدوا عسكر يطى وعمر بن تورجير بن يوسف زوج ابنته مريم في عساكر ، فبشر المسيح⁽¹⁾ بهزيمتهم فانهزموا .

ولما رأى يطى بن إسماعيل الهزيمة وثب من صهوة فرسه إلى الأرض وجلس على درقته ليرجع الناس إليه ، فأدركته الدفعة وقتل وهو على درقته .

وكانت الهزيمة من أمجدار⁽²⁾ إلى فحص مراکش حرسها الله تعالى .

الهزيمة على أغمات :

« وخرج يوم الأربعاء جميع أهل أغمات حتى التجار ، فتنادب⁽³⁾ الموحدون أعزهم الله على القتال ، وكان المدبرون لأمر الموحدين أعزهم الله تعالى ثلاثة رجال : سيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين⁽⁴⁾ ، وأبو حفص عمر بن علي أصناج⁽⁵⁾ ، وأبو عمران موسى بن تمارا الجدميوي⁽⁶⁾ ، رتبوا الصفوف . فكانت الهزيمة وأخذت جميع المحلات ، وقتل من أهل أغمات مقتلة عظيمة ، ومات فيها من جناوة⁽⁷⁾ ثلاثة آلاف أسود ، ومشت الهزيمة إلى أن وصل الموحدون أعزهم الله تعالى أفراج يوسف بن وغواد ، فباتوا هنالك ليلة الخميس .

(1) من الغريب إطلاق تسمية « المسيح » ، فلنسا نعلم أن المهدي أو أحد رجاله قد أطلق عليه هذا اللقب ، وربما كانت سهوا من الناسخ أراد به البشير المذكور قبل ذلك .

(2) في الأصل : محدار ، وقد سبقت قبل ذلك بسطور على الصورة التي صححناها بها ، وذكر ابن القفطان أنها تقع بقبلة أغمات وريكة أي في جنوبها ، ونظن أن هذا الموضع هو نفسه الذي ذكره البيهقي باسم « مكنداز » في الحديث عن الأحداث التي سبقت وقعة البحيرة (أخبار المهدي ص 78 من النص و 127 من الترجمة الفرنسية) .

(3) في الأصل : فتناسبوا ، ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(4) يعني المؤمن بن علي .

(5) عن عمر أصناج انظر ما سبق أن جاء في ص 126 ، حاشية رقم 4 .

(6) عن موسى بن تمارا راجع ص 127 ، حاشية 1 .

(7) لم يرد هذا الاسم في المصادر التاريخية أو الجغرافية الأخرى التي بين أيدينا . ومن الواضح أن المؤلف يستخدمه في الدلالة على قبيلة أو شعب من شعوب إفريقيا الغربية السوداء في المنطقة التي كان العرب يعرفونها بقناة ، ولعله يقصد به ما يدعى اليوم بـ « غينيا » .

هزيمة علي بن يوسف :

وأصبح الموحدون أعزهم الله تعالى يوم الخميس على باب الشريعة ، فخرجت إليهم العامة أجمعون بنشاط وعزم بغير سلاح ، وبرز علي بن يوسف بعساكره .

فلما رأى السوقة بغير سلاح نودي فيهم أن ارجعوا ليأخذوا السلاح ، فكان رجوعهم شبيها بالهزيمة ، فخرج الموحدون أعزهم الله تعالى على بقية ذلك من دارة لهم كانوا صنعوها - تلك الدارة - بحمي⁽¹⁾ ، ودفع الموحدون أعزهم الله تعالى في أثر العامة دفعة واحدة ، فكانت الهزيمة إلى باب الشريعة⁽²⁾ ، وتضايق الناس في الباب ، فمات أكثر الناس في الزحام وكثر القتل فيهم ، فدهش علي بن يوسف وحر حتى لقال له بعض الناس ممن [كان معه]⁽³⁾ : يا مرابط ، سر من هنا ! - إلى أحد الأبواب حيث لا زحام - ، ولم يرد أن يسميه لثلا يعلم به ، ففر ودخل على باب المخزن⁽⁴⁾ .

وكان يوما عظيما ، فمشتى الموحدون أعزهم * الله تعالى إلى بحيرة الرقائق⁽⁴⁾ أمام باب الدباغين⁽⁵⁾ وباب أيلان⁽⁶⁾ ، فأخذوا مروسهم⁽⁷⁾ فيها .

(1) كذا ، ولعله يعني أنهم للتحصن والاحتفاء بها .

(2) هو الباب الذي يعرف اليوم باسم « باب الخميس » .

(3) إضافة يقتضيه السياق .

(4) هو المعروف اليوم باسم « باب الأحمر » .

(5) في الأصل : الزناعين ، والصواب ما أثبتنا ، وقد أشار إليه البيهقي (أخبار المهدي ص 103) ،

ويسمى اليوم « باب الدباغ » .

(6) احتفظ هذا الباب باسمه القديم حتى اليوم : باب أيلان (أي أغمات أيلان) .

(7) كذا .

أربعون هزيمة على مراکش وذكر يوم البحيرة

وتقادى الحصار على مراکش حرسها الله تعالى مدة من أربعين يوما يقاتلونهم في كل يوم منها أشد قتال ، يحمل الواحد من الموحدين أعزهم الله تعالى على العشرة من المثلثين فبهزمهم ، وسيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه في هذه الأيام يتقدم أمامهم لبسالته ، وبهزم الأبطال لحماسته ، والسعد يقدمه ، والنصر يخدمه ، وعلي بن يوسف يحشر عساكره من جميع الأقطار ، ويستوفد من بالأندلس منهم وفي جزائر البحار ، والعساكر تصل إليه كل يوم ، إلى أن وصله وانودين بن سير ⁽¹⁾ بعسكر سجلماسة ، فانكسر إلى باب الدباغين ، ووصل عسكر القبلة ، فلم يدخلوا مراکش ، وباتوا في أخبيتهم بخارج باب أغمات ، فعرض عليهم الدخول ، فامتنعوا إلا معالجة الحرب ، فغلس الفريقان مبكرين على سروجهم وتعبيتهم .

فكانت المدافعات بينهم على رؤوس العيون من سواقي الرقائق فاستشهد من (114) استشهد من الموحدين ، وانحاز باقيهم إلى التمتع بداخل البحيرة .

وإن حفيرا من تلك السواقي خندقا عظيما مغاره في السعة ثلاثون ذراعا اعترض لسيدنا الخليفة الأول رضي الله تعالى عنه في طريقه ، فوثب به فرسه - وكان فرسا أخضر - فعجب الموحدون أعزهم الله تعالى لسعة الخندق وقوة الوثبة وثبات سيدنا الخليفة رضي الله تعالى عنه على السرج ، وقيل إنه أعاد ذلك ثانية كذلك .

(1) في الأصل : وايدين ... ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وربما كان وانودين بن سير هذا هو نفسه الذي ذكره ابن عذارى في البيان المغرب (الجزء الرابع - ط. تطوان 1960) ص 215 وطبعة بيروت الأخيرة - قسم الموحدين ص 239 ؛ وقد قال ابن عذارى عنه إنه كان أول وال على جزيرة ميورقة بعد استنقاذها من أيدي القراصنة البيزيين والجنوبيين والقطلايين سنة 509 ، إلا أنه لم يبق بها إلا ثلاثة أشهر (انظر كذلك مقالنا « وثائق تاريخية ... » ص 161) .

وكانت الحرب في البحيرة إلى أن جمع الناس بين صلاة الظهر والعصر ، وصلوا صلاة الخوف ، فقال علي بن يوسف لما رأى الموحدين أعزهم الله تعالى يصلون صلاة العصر بعد الهزيمة في البحيرة : إن هذا لعجب : غلبوا فصلوا ، وغلبناهم فعتلناها ! ما أظن هؤلاء إلا على الحق ! . وقد كان الموحدون أعزهم الله محافظين على الصلوات في أوقاتها وعلى شروطها .

وكانت هذه الكائنة على الموحدين أعزهم الله تعالى يوم السبت الثاني من جمادى الأولى عام أربعة وعشرين وخمسمائة ⁽¹⁾ في قول المؤرخين كلهم إلا اليسع ، فقد تقدم قوله ⁽²⁾ ، وما أراه إلا وهما .

وفقد البشير وجماعة من أهل الجماعة ، وحمل أبو حفص عمر بن يحيى ⁽³⁾ جريحا على الأعناق ، فلما جن الليل تداول الناس جرحاهم ودفنوا من أمكنهم دفنه ، وأردف الناس بعضهم بعضا ، وتعاونوا ورحلوا .

وكان من لطف الله تعالى أن جاءت ⁽⁴⁾ السماء بمطر وابل في عشي ذلك اليوم فانكفأ له « المجسمون إلى ديارهم ليعاودوا » ⁽⁵⁾ القتال بعد ذهاب كلهم ، (114 ب) وتخلص أمير المؤمنين رضي الله عنه مع الصابرين الباقين من أصحابه ، وأمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه يتقدمهم ، ودفعوا على من كان وثب عليهم من المثلثين ، فانهزموا أمامهم ، وخلوا لهم عن الطريق .

(1) يقابل هذا التاريخ 13 أبريل سنة 1130 م. ، على أن الباحث الأستاذ أويشى يرى أن هذا التاريخ لا يطابق ما ذكره أبو بكر البيهقي في كتاب أخبار المهدي حول هذه الموقعة ، ورأى البيهقي له قيمته الكبرى إذ أنه قد اشترك في المعركة بنفسه ، وقد ساق أويشى حججه على رأيه ، وانتهى إلى أنه يمكن التوفيق بين ما ذكره المؤرخان إذا صحح ما يقول ابن القطان على أساس جعل تاريخه « الثاني عشر من جمادى الآخرة » لا الأولى أي 13 مايو سنة 1130 ، وقد كان يوم السبت أيضا (انظر تاريخ الدولة الموحدية 83/1 - 84) .

(2) لم يتقدم هذا القول فيما بين يدينا من المخطوط ، ولعله ذهب في أحد الخروم الكثيرة التي ذهبت ببعض أوراقه .

(3) هو عمر إبنيتي (الهنتاتي) الذي تكرر ذكره غير مرة .

(4) قد تكون أيضا : جادت .

(5) في الأصل : ليعادوا ، وقد تكون أيضا : ليعادوا .

ولقد حكى السيد الأجل أبو علي الحسن بن أمير المؤمنين ⁽¹⁾ رضي الله تعالى عنه قال :

سمعت أبي رضي الله تعالى عنه يقول :

كان يوم البحيرة فارس من فرسان الموحدين ، يحمل على المثلثين فيرمونه بالنبال ، فيحميه الله تعالى من السهام ، فتصيب الرمح الذي بيده حتى يرجع رمحه مثل القنفذ من السهام .

قال :

وكان يفهمنا أنه رضي الله تعالى عنه ذلك الرجل .

وقعة بجهة أغمات :

وساروا حتى إذا كانوا بجومة أغمات لحقهم الطلب ؛ فروى عن سيدنا الخليفة رضي الله تعالى عنه أنه قال :

لما ضيقوا علينا واضطربنا إلى الدفاع كان معي عبد الله بن يعلى بن ملوية ، فانقسمنا قسمين : أنا في قسم ، وهو في قسم ، والمثلثون قد ألحوا ⁽²⁾ في اتباعنا ، فقال لي عبد الله بن يعلى : كن أنت واصحابك في اليمين واضرب فيهم ! ففعلنا ذلك ، فانهمز المثلثون في الحين إلى باب مراکش فكان عاقبة عبد الله ما اختاره لنفسه أنه من أصحاب الشمال ! ⁽³⁾

(1) سنورد ترجمة الحسن بن عبد المؤمن هذا عند الحديث عن أبناء هذا الخليفة الموحي .

(2) في الأصل : لقد لحوا .

(3) يعني بذلك خروج ابن ملوية - وكان أحد أهل الجماعة العشرة - على دعوة الموحدين أو « ارتداده » عند إعلان خلافة عبد المؤمن بن علي ، وكان قد انضم إلى صفوف المرابطين حينئذ ونهض إلى تينملل ليهدمها ، فقام عليه بعض زعماء جنفيسة وقتلوه وصلبوه بتينملل سنة 527 (انظر ما سبق أن كتبناه عنه في الحاشية رقم 1 ص 128) .

ولما وصل الموحدون أعزهم * الله تعالى إلى جبل هزرجة - وهي بلاد الشيخ أبي ابراهيم - ⁽¹⁾ عين سيدنا الخليفة رضي الله تعالى عنه خمسين رجلا محتسبا ، وأمرهم أن يسبقوا إلى الفج ، وكان هزرجة هموا بالغدر ، وخاف أن يسبقوا إليه ، فسبق المحتسبون إليه ، وسلموا من عدوهم ، فلقوا به عسكريا من الغزاة قد بعثهم الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ، فساروا معهم إلى تينملل . وكان قتل هيلانة يوم البحيرة ذريعا : مات منهم زهاء اثني عشر ⁽²⁾ ألفا ، لأنهم كانوا قد حشدتهم الموحدون أعزهم الله تعالى ، وأوعبوا في الحشد ، فعملوا الهزيمة يومئذ . وكانوا أول منهزم لأبي عمرو من بلادهم ، فتبعهم المجسمون ، فأوعبوا قتلهم .

واستشهد يوم البحيرة نصف أهل الجماعة ، وسلم نصفهم . فالذين سلموا : منهم سيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه . وأبو حفص عمر بن علي ، وأبو إبراهيم ، وأبو حفص بن يحيى ، وعبد الله بن ملوية . وكان سيدنا الخليفة قد وجه رقاصا ⁽³⁾ للإمام المهدي رضي الله تعالى عنهما بالخبر . فوصل إليه . فاستجلاه ، وأعلمه بالحقيقة . فقال له : عاش أبو محمد عبد المؤمن ؟ قال : نعم ، قال له : كأنه لم يميت أحد ⁽⁴⁾ ! والبركة في بقائه . وكأنكم بالفتح !

وصادف الموحدون أعزهم الله تعالى الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه عند وصولهم إليه مريضا . فلم يعيش بعدها إلا أياما * قلائل .

(1) يعني أبا ابراهيم اسماعيل بن يسلاي الهزرجي أحد أهل الجماعة العشرة (انظر ص 126 حاشية 3) .

(2) في الأصل : اثنا عشر .

(3) الرقاص في الاصطلاح الأندلسي والمغرني هو حامل البريد ؛ وقد ذكر البيهقي في كتابه (أخبار المهدي ص 79) إنه هو نفسه كان الذي أبلغ خبر هزيمة البحيرة إلى ابن تومرت (انظر دوزي : ملحق القواميس العربية 547/1) .

(4) في الأصل : أحدا .

وقية انهزم فيها المثلثون :

ذكر البيهقي أنها كانت بعد البحيرة وقية مع لمتونة ، وهم في أربعة جيوش يقدمها أربعة من صناديدهم ⁽¹⁾ ، فاقتتلوا بموضع يقال له « أيجران بني توكريت » ⁽²⁾ ، فلما رأوا ما لا يطيقون رجعوا إلى مراكش ، ورجع الموحدون أعزهم الله تعالى إلى تينملل ، وهذا في حياة الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ، وميزهم الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه ، وكتب اسم عمر أصناج بعد اسمه ، وجعل رسمه عقيب رسمه .

(50 أ) « قال اليسع :

..... [فقال ابن هَمْشُك :] ⁽³⁾ تأمرني أن أجمع ثلاثمائة فارس وأخرج إليهم ؟ قال [علي بن يوسف :] نعم !

فصعد ابن هَمْشُك ⁽⁴⁾ على باب أيلان ، وأخرج جملة من أصحابه يقاتلون أمامه لينظر أحوالهم في قتالهم ، فرآهم يخفتم يدخلون تحت ظل الفناء ،

(1) الخبر بالتفصيل في كتاب البيهقي (أخبار المهدي ص 79 - 80) ، وقد ذكر أسماء قواد هذه الجيوش المرابطية الأربعة ، وهم سير بن واربيل ومسعود بن ورتيغ ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان .

(2) يسمى البيهقي هذا الموضع « إيجر متاع بني كوريت » .

(3) لم يترك الناسخ هنا فراغا إلا أنه من الواضح أن عدة سطور قد سقطت من هذا الموضع مما حملنا على إضافة ما وضعناه بين حاصرتين ، على أن هذا النص كان من بين ما نقله عن اليسع صاحب « الحلل المشوية » دون أن يشير إلى مصدره ، ومؤدي النص هنالك (الحلل المشوية ص 114 - 115) أن الموحدين ضربوا الحصار قبل معركة البحيرة أربعين يوما على مراكش كان يتوالى خلالها القتال ، وكان في جيش علي ابن يوسف رجل من أهل ثغور الأندلس يدعى عبد الله بن هَمْشُك ، فلما اشتد الأمر على علي بن يوسف من أجل الحصار طلب إليه ابن هَمْشُك أن يأذن له في الخروج إلى الموحدين بثلاثمائة فارس من أصحابه ... الخ .

(4) ضبط الأستاذ أويشي هذا اللفظ « هَمْشُك » بفتح الهاء والشين وسكون الميم (انظر تاريخ الدولة الموحدية 81/1 ، وترجمته للحلل المشوية ص 118 ، حاشية رقم 1 حيث يذكر أن ضبطه لهذا الاسم على تلك الصورة إنما توخاه وقصد إليه بعد أن رآه مضبوطا هكذا في مخطوطة « نظم الجمان ») ، =

فنزول وأمر الخارجين معه إليهم أن يردوا أرماعهم من ستة أذرع ، وبرز أول النهار إليهم ، فما انصرف حتى أدخل المدينة نحو من ثلاثمائة رأس ، ففر الناس .

وأمر علي بن يوسف بالخروج إليهم ، فالتقوا ، وانهزم الموحدون أعزهم الله تعالى ، وقتل منهم نحو من أربعين ألفا ، ولم يسلم منهم إلا أربعمائة بين فارس وراجل . فظهر أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن رضي الله تعالى عنه في هذا اليوم ظهوراً عظيماً ، وأغنى غناء بينا ، وذبح عن المنهزمين ، وحمل المفلولين إلى أن جن الليل ، وكان الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه في هذه الأحوال لا يسافر إلا أن يبعث البعوث .

ولما جن الليل انصرف الموحدون أعزهم الله تعالى ، ولحقوا بالجلبل فلما سمع الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه بهزيمتهم قال : إذا عاش عبد المؤمن بقي الأمر وظهر .

وفي * « البحيرة » فقد البشير ، ولم يجده الموحدون ولا المثلثون حيا ولا ميتا ، [50 ب] فيقول الغلاة في أمره إنه رفع ! ⁽¹⁾

= وقد تبع أويشي على ذلك الأستاذ بوسك بيلا في كتابه عن « المرابطين » (ص 218 - 219) ، وإنما الصواب في ضبط الاسم هو فتح الهاء وضم الميم وسكون الشين ، أما مخطوطة « نظم الجمان » فلا يعتد بضبط ناسخها ، إذ أنه دائما حافل بالأخطاء مما لا يجعل لنا معولا عليه بأية صورة ، ويدل على صواب ما ذكرنا في ضبط هذا الاسم ذلك البيت الذي رواه ابن الأبار للشاعر أبي بكر اليعمري الوبدي في هجاء ابراهيم بن هَمْشُك (المقتضب من تحفة القادم بتحقيق الأستاذ ابراهيم الايباري ص 77) :

هَمْشُكُ ضَمَ مِنْ حَرْفِهِ - مِنْ هَمْ وَمِنْ شَكْ

إذ لا يستقيم ضبط أويشي مع سلامة وزن البيت . أما عبد الله بن هَمْشُك فلم توافنا عنه المراجع بما يشفي الغلة ، وكل ما نعلمه هو أنه ينبغي أن يكون من هذه العائلة الأندلسية المسيحية الأصل والتي كان من أبرز رجالها ابراهيم بن هَمْشُك صهر أمير مرسية محمد بن سعد بن مردنيش (انظر عنه ابن الأبار في الموضع المذكور قبل ذلك ، وابن الخطيب : أعمال الاعلام ص 260 - 263 ، والإحاطة (ط . عنان) 303/1 - 296/1 . وابن عذاري : البيان المغرب - القسم الموحد (طبعة بيروت) ص 67 ، 69 ، 73 - 78 ، 108 - 112 .

(1) عن معركة البحيرة انظر كذلك : البيهقي : أخبار المهدي ص 78 - 79 ؛ الحلل المشوية ص 114 - 116 ؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 14 - 15 ؛ ابن الأثير : الكامل 289/8 ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان 53/5 ؛ نهاية الأرب (ط . جاسبار رميرو) ص 192 - 193 ؛ ابن خلدون : العبر 228/6 - 229 ؛ السلاوي : الاستقصا 86/2 - 88 .

فلما انصرفوا إلى تينملل بعد الهزيمة اشتدت عليهم الأحوال .

وقال ابن الراعي :

خرج الموحدون أعزهم الله تعالى عام البحيرة حتى نزلوا بظاهر أغمات بالموضع المسمى « أمجدار » ⁽¹⁾ ، وأقاموا هنالك أربعين يوما ، واتصل بهم بكور بن علي بن يوسف ⁽²⁾ بشرذمته وشوكته ؛ ففتح الله تعالى لأوليائه الموحدين وهزمهم واتبعوهم بالسيف والسلب إلى مراكش .

وقال غيره :

هزم بكو ويطي بن إسماعيل ، فخرج علي بن يوسف بشرذمته وشوكته ، ففتح الله تعالى لأوليائه الموحدين إلى باب المدينة ؛ ودخل علي بن يوسف على باب دكالة ، ورجع بقية المنهزمين من واد أم ربيع فخلق علي بن يوسف لحاهم .

وكان يوم البحيرة بعد شهر ونصف من وصولهم ؛ وبني الجامع ، وأنفق في بنائه نحو ستين ألفا ، وبني صومعته نحو الثلث ، وتركها تتقعد ، ثم أتم بناءها سنة سبعة وعشرين .

والعباسي في هذه السنة هو المسترشد ، وبإفريقية حسن بن علي وبمصر الأمر .

(1) في الأصل : إنجدار ، وقد سلف ذكر هذا الموضع على الصورة التي أثبتناها ، وأشرنا إلى أن الأرجح هو أن يكون هذا الموضع هو الذي يسميه البيهقي (ص 78) « مجداز » .

(2) كذا ورد الاسم هنا ، وقد سبق أن جاء « بكو » ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هاتين صيغتين في اسم « أبي بكر » .

« موادة الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه

للناس وإشعاره إياهم بوفاته

وذلك أنه لما تمادى مرضه خرج راكبا على بغلته ، وجمع الناس ليسمعهم كلامه ووداعه ، وأمر أن يكون الرجال أمامه ، والنساء خلفه ليسمع كلهم كلامه ، فقال لهم رضي الله تعالى عنه : إن المهدي مرتحل عنكم ! فبكى الناس واستوحشوا ، فقالت له أخته زينب : وإلى أين تغيب عنا ؟ ألم يكفك أن غبت عنا خمسة عشر عاما ؟ وقالوا له : إن كنت تسير إلى الشرق ونسير معك ؟ ؛ فقال إنما أسافر وحدي !

وكان وعظه رضي الله تعالى عنه ووداعه للناس من بعد العصر * إلى أن كاد ^[43] الشفق أن يغيب ؛ ثم التفت إلى الوقت وهو راكب ، فكبح البغلة باللجام ، ورجع إلى موضعه وصرف الناس ، وقال لهم : صلوا الصلاة في أوقاتها ، وإياكم أن تقولوا إن المهدي أخر الصلاة عن وقتها من أجل أنه قد فاتته المغرب أو كادت لاشتغاله بالوعظ ! واتصل به الألم .

وفاة الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه [عنه] :

توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رمضان المعظم من عام أربعة وعشرين وخمسمائة ⁽¹⁾ ، ودفن رضي الله تعالى عنه بمدينة تينملل حرسها الله تعالى .

خاتمة لذكر دولته رضي الله تعالى عنه

بذكر ما لم ينضبط بالتاريخ من أمره :

كان رضي الله تعالى عنه يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ويخبرهم أن الله سبحانه فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، وفرض عليهم زكاة تؤخذ

(1) يتفق معظم المؤرخين على هذا التاريخ (14/13 رمضان سنة 524 وهو يوافق أوائل أغسطس سنة 1130 م .) . وانظر حول ذلك أويشي : تاريخ 87/1 .

من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ولزوم الحزب⁽¹⁾ بعد صلاة الصبح وبعد المغرب ، وأمر المؤذنين إذا طلع الفجر أن ينادوا « أصبح والحمد لله ! »⁽²⁾ إشعاراً بأن الفجر قد طلع ، لإلزام الطاعة ، ولحضور الجماعة وللغزو لكل⁽³⁾ ما يؤمرون به ؛ وأمر بغزو من خالف أمره ؛ وعلم الناس الحركة كيف تكون ، فأمرهم إذا عزموا على الركوب * أن ينادي مناد : الاستخارة بالله والتوكل عليه ! ، وإذا تحركوا أن يقدموا أمامهم لواء أبيض مع عدد من الرجالة يكون بينه وبين الأمير مقدار ربع ميل ، ويكون الأمير متقدماً على الناس خلف اللواء المذكور في جملة من يختص به يحفون به ، ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول والعسكر المعروفون بالساقة ، ثم كل قبيل على ترتيب وحسن هيئة معه علاماته .

فأما رأيته⁽⁴⁾ المنصورة المتقدمة بين يديه ففى أحد وجهيها مكتوباً « الواحد الله ، محمد رسول الله ، المهدي خليفة الله » ، وفي الوجه الثاني « وما من إله إلا الله ، وما توفيقى إلا بالله ، وأفوض أمري إلى الله » .

وأما رايات الموحدين أعزهم الله تعالى وأنجدهم فإنما تفنن أمرها حين تواصلت فتوحهم بعده كما سيأتي وصفها إن شاء الله تعالى ، فأما في أيامه فإنه لما ملأت عليهم رايات لمتونة الفصوص مختلفة الألوان قال لهم : لا تهولنكم هذه الخرق ، وارفعوا أئتم ماos لديكم من الثياب ، فغن قريب تصوير هذه العلامات كلهم لكم ! فرفعوا أزرهم وأكسيتهم وأرديتهم ونحو ذلك ، ثم أفاء الله تعالى عليهم علامات أعدائهم .

(1) في الأصل : الحرب .

(2) أورد ذلك أيضاً السلاوي في الاستقصا (94/2) ، وقد أصبح هذا النداء شعاراً للموحدين بدليل ما يذكره ابن عذارى في البيان المغرب (القسم الموحيدي - ط . بيروت ص 20) في أثناء الكلام من حصار الموحدين لوهران : « فاجتمعوا ذات يوم في الجبل المطل على وهران ، فصاحوا صيحة واحدة بلسان واحد : أصبح والحمد لله ! ولم يكن للمتونيون يصيحون بذلك ، فلما سمعه أهل عسكر تاشفين (بن علي بن يوسف) وقعت رجفة عظيمة ، فأمر ألا يخرج إليهم خيفة الكمين » .

(3) هذه الكلمة مكررة في الأصل .

(4) في الأصل : رأيته .

وأوصاهم في سفرهم إذا مروا على طريق متصل * بها زرع نكبوا عنه ودرأوا أهل الفساد عنه ؛ وإذا سمع صياح متظلم⁽¹⁾ وعى قوله وأشكى من ظلمه .

وقال رضي الله تعالى عنه :

شروط العلم تسعة ، وهي : الفراغ التام ، والبصيرة النيرة ، والسريرة الحسنة ، والهمة العالية ، والصبر الحديدي ، والافتداء بالإمام الناصح ، واتباع السبيل الواضح ، والتأدب بأدب أهله ، وألا يبتغي به ماسوى وجه الله تعالى .

وينبغي لطالب العلم أن يقدم أربعة أشياء : أن يرغب إلى الله تعالى في الهداية إلى الحق ، وأن يكون له سريرة حسنة ، وأن يقنع بما علمه الله ، وأن يعلم أن الباب مفتوح لسائر العباد .

والأعمال لا تصلح إلا بتقديم أربعة أشياء : الحذر ، والاحتياط ، والإشفاق ، والإخلاص .

والقواطع عن العلم أربعة : الحوادث الصارفة ، واشتغال النفس ، وعدم الكفاف ، ومخالطة الناس .

آداب الصحبة ثمانية : المسألة ، والمساحة ، والمساعدة ، والمناصحة ، والمؤازرة ، والمواصلة ، والمحافظة ، والمكارمة .

وكان دعاؤه رضي الله تعالى عنه :

اللهم أعنا على طاعتك ، وأتمم علينا نعمتك ، وزدنا من فضلك وإحسانك ، وثبتنا على دينك ، حتى نلقاك وأنت راض عنا برحمتك يا أرحم الراحمين⁽²⁾ .

(1) في الأصل : متكلم .

(2) نقل هذه الفقرة من دعاء المهدي صاحب الحلل الموشية ص 118 - 119 ، وانظر كذلك ترجمة أويشي الإسبانية ص 142 - 143 .

اللهم وفقنا ولا تغفلنا ، واهدنا إلى الخير ولا تخيبنا ، ووفقنا لما تحب وترضى
[44 ب] حيثما كنا ، وأعنا على القيام بحقك ، وحفظ أمانتك ، « ورعاية عهدك ، بفضلك
يارب العالمين .

اللهم تعلم ذنوبنا كلها فاغفرها ، وتعلم عيوبنا كلها فاسترها ، وتعلم حوائجنا
كلها فاقضها ، وتعلم أعداءنا فاكفنا إياهم ، كفى بك وليا ، وكفى بك نصيراً .
اللهم إن نواصينا بيدك لم تملكننا منها شيئاً ، فكما فعلت ذلك بنا فكُن
أنت ولينا ومولانا ، واهدنا إلى سواء السبيل ، إنك نعم المولى ونعم النصير ،
والحمد لله رب العالمين .

ذكر الفترة التي تلت وفاته بكتان موته

رضي الله تعالى عنه عن الجمهور ، والبيعة

الخاصة لسيدنا ومولانا الخليفة الأول

أمير المؤمنين رضي الله عنه

وذلك أنه لما توفي رضي الله تعالى عنه كتم أصحابه وفاته ، وما كان يعلمها
إلا أهل الدار المسمون قبل ، وهم خدمته وأخته شقيقته ، ولقد كتمت ذلك عن
زوجها ، وأكابر أصحابه فبايعوا سيدنا ومولانا الخليفة الأول الإمام أمير المؤمنين في
الحين بيعة « السر رضي الله تعالى عنه (1) .

..... (2) وقال له : سيركبك الخيل !

(1) ذكر البيهقي أنه لم يحضر وفاة المهدي إلا خمسة أشخاص : خليفته عبد المؤمن بن علي ،
وأبو إبراهيم إسماعيل بن يسلا الهزرجي ، وأبو محمد وسنار ، وعمر أصناج ، وأخت المهدي أم
عبد العزيز بن عيسى (انظر أخبار المهدي ص 81) .

(2) لم يترك الناسخ فراغاً هنا ، ويبدو أن كلمات سقطت من النص فيها تنمة لهذه الجملة التي يتنبأ
فيها ابن تومرت لعبد المؤمن بعلو كلمته واتساع سلطانه ، ويشبه ذلك ما أورده ابن خلكان في وفيات الأعيان
(239/3) إذ يقول إن ابن تومرت كان كثيراً ما يقول لأصحابه : صاحبكم هذا =

وقال الإمام رضي الله تعالى عنه عام البحيرة لما أصيب الموحدون : أسلم
عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم . قال : فالأمر باق إلى قيام الساعة !

فهذا وأمثاله من أقوال الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه يدل على
ما صدقه الوجود من أن الخلافة في عقبه رضي الله تعالى عنهم أجمعين إلى قيام
الساعة بحول الله تعالى كما قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم
في حديث البزار (1) الذي ذكرناه ، وكما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام :
« إذا اختلف الناس فالعدل في مضر » ؛ وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزال
أهل الغرب (2) ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة » (3) . وقد جردنا الكلام على
هذا الحديث في « الإحكام » (4) والحمد لله .

كرمه رضي الله تعالى عنه :

كان يخرج للمواساة مرتين وثلاثاً في الشهر الواحد بحسب حضور المال (5)

= غلاب النول ! (يعني عبد المؤمن) ، ويتبع ذلك ابن خلكان بقوله : ولم يصح عنه أنه
استخلفه ، بل راعى أصحابه في تقديمه لإشارته ، فتم له الأمر وكمل .

(1) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق المعروف بالبزار حافظ عالم بالحديث ، توفي بالرملة (فلسطين)
سنة 905/292 . له مسند كبير في الحديث سماه « البحر الزاخر » ، ويوجد السفر الأول منه في خزانة الرباط
برقم 243 ق (الأوقاف) ويوجد منه السفران الثاني والثالث في مكتبة الأزهر . انظر في ترجمة البزار : تاريخ
بغداد للخطيب البغدادي 334/4 ؛ وتذكرة الحفاظ للذهبي 204/2 ؛ وشذرات الذهب لابن العماد 209/2 ؛
وميزان الاعتدال للذهبي 59/1 . ولم يتيسر لنا مقابلة الحديث المذكور على أصول مسند البزار .

(2) هذه الكلمات مضموسة في الأصل .

(3) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم ، كتاب الإمارة 4/6 ؛ والمالكي : رياض النفوس 3/1 ؛
والحميدي : جذوة المقتبس ص 7 ؛ وابن عذاري : البيان المغرب 6/1 ؛ وعبد الواحد المراكشي : المعجب
ص 14 - 15 .

(4) يشير ابن القطان بذلك إلى كتابه الذي ألفه للخليفة الموحدي المرتضى « الإحكام من آي خير
خيرة الأنام » في معجزات رسول الله (ﷺ) وآياته . راجع دراستنا لابن القطان ولأثاره في تقديمنا لهذا
الكتاب ص 10 .

(5) في الأصل : الملل .

لديه ، وكان رضي الله تعالى عنه يتفقد من يرتب ببابه الكريم بأن يغلق الباب على غفلة من الناس ويحصى من حضر ، فيعطوا على السوية عشرة دنانير عشرة دنانير ، يفعل هذا في العام مراراً كثيرة ، وربما إلى (1) ذلك في كل شهر .

تواضعه رضي الله تعالى عنه :

قال ابن صاحب الصلاة :

إنه ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعاً لله تعالى وزهداً .

تأديبه لبنيه الكرام رضي الله تعالى عنه وعنهم :

كان رضي الله تعالى عنه يطعمهم الطعام الحسن ويلبسهم مثل ما يلبس من الثياب ، وكان يدرهم في الدين ويشدد عليهم فيه ويعلمهم الأذان ، يأخذهم بالرمي والعموم وركوب الخيل والتدرب عليها مع الموحدين أعزهم الله تعالى (2) ، وكان يأخذهم بحضور الصلوات الخمس في الجماعات ، وبقراءة الخبز من القرآن إثر الصلاة ، ويحضرون مع المؤذنين في الأسحار على ارتقاب الفجر والمنازل ، وربما يمشون على أقدامهم ، وإذا ولاهم البلاد بعث معهم من أشياخ الموحدين أعزهم الله تعالى ورجالهم العقلاء الخيار الفضلاء وزراء وأشياخا في الأحكام ، والحمد لله رب العالمين .

(1) في الأصل : إلى .

(2) ما ذكره ابن القطان هنا حول تأديب عبد المؤمن بن علي لبنيه سواء من الناحية العلمية أو العسكرية كان متبعاً بصفة عامة في تربية الحفاظ - أي صغار الطلبة - الذين كان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف ، وقد تحدث عن ذلك بالتفصيل صاحب الحلل الموشية (ص 150) . وانظر تعليق الدكتور أحمد مختار العبادي على هذا النص في مقاله « دراسة حول كتاب الحلل الموشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين » (مجلة تطوان - العدد الخامس سنة 1960 - ص 107) .

الإثناء الإمامي المهدي عليه رضي الله تعالى عنه والتصريح بخلافته بعده رضي الله تعالى عنهما وبقاء الأمر العلي في عقبه الكريم إلى قيام الساعة بحول الله تعالى

قال :

..... (1) « مشاورين ، ويأمرهم بالتزام أشياخ البلاد من الفقهاء [51]

والطلبة والكتاب والشعراء ، ومذاكرتهم وملازمة الخير وقراءة القرآن وعقائد الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه وحفظها ، وحفظ التوحيد العربي والغربي ، (2) والعدل (3) والإحسان وإماتة الباطل .

علمه وحلمه وانبساطه رضي الله تعالى عنه :

أما علمه رضي الله تعالى عنه فسيأتي قطعه لزمانه بإملاء علوم المهدي رضي الله عنهما ، وقراءة العقائد (4) والموطأ ، (5) ومجالسته للطلبة ، حتى

(1) سقط أول هذا النص ، ولو أن بقيته تبدو هي التي أوردها صاحب الحلل الموشية في ص 150 - 151 والتي تحدث فيها عن تأديب الحفاظ وتعليمهم .

(2) يقصد باللغتين العربية والبربرية .

(3) في الأصل : والأعدل .

(4) ربما كان يعني بكلمة « العقائد » مجموع تعاليم المهدي ابن تومرت لا كتاباً بعينه ، وفي هذه الحالة يكون الأرجح أنه يعني كتاب « أعز ما يطلب » الذي يتضمن بياناً لعقيدة المهدي وجملة الآراء التي كانت عماد ثورته الدينية السياسية ، وربما كان هذا اللفظ تحريفاً لكلمة « القواعد » إذ أننا نعرف أن ابن تومرت ألف كتاباً بهذا العنوان ، ولو أنه فقد لسوء الحظ . (انظر مقال الدكتور مختار العبادي حول كتاب الحلل الموشية ص 157) .

(5) كتاب الموطأ الذي صنفه ابن تومرت إنما هو مجموعة الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ الإمام مالك بن أنس برواية تلميذه يحيى بن عبد الله بن بكير ، وذلك بعد حذف الأسانيد ، وقد نشرت هذا الكتاب مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر سنة 1907 ، وبالخرزانة العامة بالرباط منه نسختان تحت رقمي 840 ج و 1222 ج (انظر مقال الدكتور العبادي المشار إليه قبل ذلك ص 157 ، حاشية 72 - 73) .